هدى نعمة – عميد كلّيّة الفلسفة والعلوم الانسانيّة – جامعة الروح القدس الكسليك

بمناسبة "يوم شكيب خوري" – ٢٣ أيار ٢٠١٢

كلمة في شكيب خوري المؤلّف والشاعر والفنّان والمسرحيّ

إنّه يومٌ استثنائيٌّ في حياة جامعة الروح القدس – الكسليك، إنّه يوم رائدٍ في مسار المركز الأعلى للبحوث، وإن سألتم عن السبب يأتِ الجواب، لأنّ الأوساط الجامعيّة تكرّم أَحَدَ أعمدتها المميّزين على مختلف المستويات العلميّة والفنيّة، وترفعُ باسمِه جوائزَ ترتبط من جهة، بتشجيع الطلّاب الجامعيّين على اكتشاف أهل الريادة الروائيّة المسرحيّة، [الذين يفتقدُ إلى أمثالهم لبنان اليوم، ليستعيد مرتبتَه الفكريّة الفنيّة الممسرحة بين الدول المتقدّمة]، ومن جهةٍ ثانية، بدفع الطالب الجامعيّ إلى انتهاج العمل البحثيّ العلميّ سُنّةً في حياته الأكاديميّة.

إنّنا نُحيي، في 23 أيّار 2012، نهضةً جديدة. إنّها نهضة المساءلة والاعتراف بالذات وبالقدرات المحلّيّة، وبتتويج مسارٍ حافلٍ لاسمٍ تداولته الصحف وعرفته المسارح وشاكسته الأقلام، تفهمه حينًا فتلوي، ويخرج من دائرتها أحيانًا، فتشرئبّ للبحث عن هذا "الشكيب"، الذي لا يتوفّر إلّا في عمق الروح أو عبر الغوص في أغوار الحبّ، أو عن طريق النزول في صومعة النسك الزاهدة، المتصوّفة، الباحثة أبدًا عن منطلقٍ تستكين النفس عنده وتجد مبتغاها، إن هي استكانت ووجدت.

لن أسترسل في التوقّف عند محطّات حياة هذا العملاق المدعوّ شكيب خوري، لكنّني أرغب في البوح لكم أنّ شكيب خوري، ميتيّة المسرح اللبنانيّ، تَرَكَ فيّ آثارًا بليغة، يوم كان هو في طليعة فنّه، وجيلنا في بداية تلقّيه التربية الفنّيّة والذوق المسرحيّ والبعد الروحيّ والإنسانيّ، في هذه الرواية وتلك القصة وذلك المسرح أو في سواه... من شؤون المؤلّف المسرحي وشجونه والمخرج الروائي والشاعر المبدع في كلّ أعماله.

لا شكّ في أنّنا جيلٌ محظوظٌ إذ وَضَعت الأقدار شكيب خوري مثالًا أعلى لنا في زمن تربيتنا على الذوق الرفيع والحسّ المرهف... ونتمنّى للأجيال الناشئة أن يحالفها الحظّ، في مسارها التربويّ الفنيّ الفكريّ، فتقعَ بدورها على شخصيّةٍ مماثلة، لا تنزل بالإبداع سوق الجماهير التوّاقة إلى تلبية انتظاراتها، فتحوّله إلى سلعةٍ تجاريّةٍ تستسيغها العامّة وتمجّها النخبة.

"المايسترو"

إنّه شكيب خوري "المايسترو"، أحد المتفرّدين بهذا الإحساس الإنسانيّ الجامع، الذي يطال كلّ واحدٍ منّا من زاويةٍ ما، ويطبعنا ببصماتٍ قدّت من صلب الأنسنة المتجاوزة أبدًا حدود الجسد والسنّ والعقيدة والارتباط والاختلاف... بهدف أنسنة الإنسان.

شكيب خوري لاعبٌ ماهرٌ بالكلمة، يجتاحها، يطعجها فتلين شوكتها، وتتفاعل معه، يطوّعها، تتداخل فيه، ويصنع منها الأضداد، يحشد معسكرًا من الألفاظ لينزع "شعرة بيضاء من حاجبه"، أو ليجد ما أضاعه "بعد ثوان طويلة"، أو ليحضره يقينٌ مذهلٌ عندما يستيقظ "نشيطًا ولا من غايةٍ أكيدةٍ إلّا محاربة خَدَر الموت..."

يلتحق بما يعشق، يبدّد الرماديّ الجاثم بين "رصيفَي الأبيض والأسود"، يصارع الكينونة والعدميّة، يقضّ مضاجع البيت متى انعدمت فيه الروح العائليّة أو غابت عنه الإنسانيّة.

شكيب خوري مقاومٌ في مقالع الفكر وساحاته، ومع ذلك يتوقّف عند أحدهم و"هو طاقة مهدورة"، ليجعل منه "حفرة"، تستوعب ما يُرمى فيها حيث الحبّ غير متساوٍ، إلّا أنّه من شدّة الإهمال، "يتعايش اثنان، أحدهما في الانتظار والأخرى في الندم على حرمانها معنى وجود الزوج الحبيب".

شكيب خوري مخطّطٌ ومغامر، يلج الألغاز... يفكّ الرموز... يستبعد الجثّة في حفرة، ويستسيغ العقل المفتّش... الباحث... القلِق... المهاجم...، وينتشل شكيب الجيفة، وقد تأخّر "مكتب بريد الله عن استلامها".

قارئ في الهويّة، تلك المنقوشة على الآثار التاريخيّة، التي طالما أهملها الناس مستبدلينها بالأدوات الحديثة الأجنبيّة... ويستأصلون الانتماء... ويقتلعون الجذور... هناك المنازع، لكنّه الشاطر أيضًا، الشاطر ولكنّه القريب من المكر والتفاهة، وهذا الشيء من الحالة يُقلق شكيب، يُضيف على أَرَقه، يرفضُه، يمجُّه... وخصوصًا عندما يحلّ المنازع الشاطر الماكر مشكلته بالريموت كونترول، ليتأقلم مع اليأس... وتلاشي الذاكرة.

شكيب خوري صانع شخصيّات... قد تحبّ وهي ليست أكيدةً من أنّ الحب هو الدواء الشافي... هو العنصر الدائم... شخصيّاته ترغب في الخروج من عقدة نقصها... فتكبّر صورتها... وهكذا تشفي الغطرسة النكسة التي تلحق بها.

شخصيّاتٌ تريد أن تلج المستقبل عبر استخدام الدواء الذي ينشّط خلايا الذهن: الكومبيوتر، وتحلّ الصدمة: هل تعرف الشخصيّة الشكيبيّة المعتادة على الشلل الفكريّ (وهذا ما يرمز إلى الإنسان المشرقيّ عمومًا)، أن يتكيّف مع متطلّبات الكومبيوتر، وهو لا يعرف تشغيل الأدوات الكهربائيّة؟

شكيب خوري يفرز هذه الذهنيّة المريضة التي لم تتعوّد مساءلة ذاتها، والنظر إلى وضعها بواقعيّةٍ بنّاءة...

يعاقب شكيب خوري، بالتالي، الإنسان الذي يتجاوز طبيعته وقدراته، ذلك الذي يرى نفسه شخصًا أكبر... ويبني على هذه الرؤية أسطورة الأنويّة، التي تغيب عنها الروح الإنسانيّة، لما تتّصف به بالشجاعة هذه الأسطورة المشخصنة المتكرّرة المتكاثرة إلى حدّ اكتسابها الظاهرة القبليّة والمريرة... العاجزة عن مواكبة الحداثة، والعاجزة عن التفاعل مع الأنسنة.

في الحبّ

بشّر شكيب خوري بالحبّ، لا بأيّ حبّ، إنّما "بالحبّ العظيم"، الذي ينبع من العقل والإحساس الصادق، إذ بهما نصل إلى مجتمعٍ سويّ... ونبلغ الحبّ المطلق، ذلك الإبداع الدائم والينبوع الذي لا يجفّ.

ومن أساسات التبشير النبيل، تدعيم الإيمان بالحريّة، بالتساوي بين المرأة والرجل، وبالكرامة والإنسانيّة.

في المرأة

ليس عند شكيب خوري صورة واحدة للمرأة. فما ثَبُت لدينا أنّ التي يمكن أن يحبّها شكيب يجب أن تكون ذكيّة، مبدعة، خلّاقة، خارجةً من رحم الآلهة، جميلة، حرّة، يصعب استبدالها، مُتجدّدة، مُثيرة، مُقلقة، مُحرجة، عاشقة... مصدر نشوة... مصدر وحي... مصدر الولادات الفريدة من نوعها...

اعتنى شكيب خوري بالمرأة المعجونة بآلام الشرق، والخارجة من مخاضٍ عسير، والشريكة التقليديّة في السرّاء والضرّاء، أي تلك التي تكتب تاريخ عائلة... بعبارةٍ أخرى، تلك الأسطورة، التي تتجاوز الغرائز لتصون استمراريّة العائلة، لتحافظ على مقوّمات المجتمع... نوعًا ما، المنقذة... أي نموذجٌ من امرأةٍ صار بحكم النسيان... وتناول أيضًا تلك المرأة المهزومة في وكرها حيث تعيش كيف يقتل استبداد ذاتٍ على أخرى الفرح، ويعطّل الذاكرة.

وتناول المرأة التي تعيش مومسًا إلى جانب رجلٍ يهملها ويشيّئها ويقذف بها إلى مراتع الخيانة.

ولا مكان عند شكيب خوري لامرأةٍ تخرج إلى العالم للبحث عن شخصيّةٍ ملحميّةٍ من حكايات الدمية، ذلك النموذج النهائيّ، الذي ترنو إليه امرأة تحقّق الذات عن طريق استبدالها...

كما لا يتوانى شكيب خوري عن الثورة على تقاليد المجتمع المتمادية في ترهّلها... فيدعو المرأة إلى التحرّر من كونها "جدرانيّة في الخيال أو هويّة اللاإسم/اللاشيء، ويدعوها إلى تطهير حناجرها من ترانيم الخضوع، لتتعلّم أن تكون صاحبة إرادةٍ وذات قرار... وتصبح مفتاح العلاقة الخلاصيّة، التي بإمكانها أن تجمع، في وثاقٍ مقدّس، ما لم يكن بالإمكان جمعه.

ليس بالأمر السهل أن تلتقط صورةً واضحةً للمرأة، التي غالبًا ما ظهرت في كتاباته، راضيةً برحلة العذاب و متآلفةً مع السأم أو متعاطفةً مع الخيانة... أو متميّزةً بالغباء... لتبقى المرأة المنشودة، التي تجسّد معاني الحبّ العظيم المتسامي على الشفقة، والتي تؤمن أنّنا بالحبّ نكون ونتوحّد، تبقى هذه الأخيرة نموذجًا مثاليًّا في ذهن شكيب خوري المقاوم في الساحة الذكوريّة، المتمايزة والحاصلة على كلّ الحقوق في مقابل تهميش المرأة وحرمانها من نِعَم الوجود... وغالبًا باسم هرطقاتٍ باليةٍ وعاداتٍ مكلّسة... وعقائد سكنت الماضي منذ زمنٍ بعيد.

في العقل

شكيب خوري الفنّان، المخرج المبدع، الأستاذ الباحث، يؤمن أنّ العقل الإنسانيّ هو "دينمو" النموّ الممتع الذي يصالحك مع الحياة... هو الذي يرفع الإنسان من حالٍ إلى أخرى، وأيّة مقاومةٍ لحقّ الإنسان، أيّ إنسان، أن يهتمّ بأمورٍ تخصّ البصيرة، تؤكّد الجهل والتخلّف، وتُغرق المجتمع في لجج الانحطاط.

فالعقل هو قاهر الظلام وحارس الأسمى... بالعقل يناقَش صاحب السلطة الذي يجعل مصالحه مقياس العدالة،

بالعقل تُناقَش الشريعة،

بالعقل نكتب تاريخًا إنسانيًّا حديثًا متجدّدًا أبدًا،

بالعقل نخرج من داء الذاتيّة... ونتحرّر من مهرجانات عرض العضلات،

بالعقل تُعالَج أزمات الوطن العربيّ، فينتج أجيالًا صلبة الارتباط بالتربة الأمّ تُغنيكَ عن الحاجة إلى الفسوخ المهرجانيّة، وتُحصِّن، بالتالي، الانتماء.

يدعو شكيب خوري، في كتاباته، إلى الإيمان بالعقل الإنسانيّ، إلى إطلاق عنانه، ليصبح العقل المنوّر وسيلة التفاهم بين أبناء الوطن الأمّ خصوصًا وبين أبناء الوطن العربيّ عمومًا، فتتغيّر الأحوال.

ومن هذا القبيل يدخل شكيب خوري مُعضلة الشرق الأوسط الشائكة، التي ستبلغ بعد قليلٍ المائة عام، ألا وهي فلسطين المنكوبة... مصدر النكسة العربيّة الدائمة... والدليل القاطع على أنّ العقل المنوّر لم يكن الملاذ الأخير لحلّ المعضلات... في هذه البقعة من الأرض.

ويلتزم شكيب خوري، كمفكّرٍ مسيحيٍّ عربيٍّ ليبراليٍّ مثقّف، قضية فلسطين، ويهزأ من إنجازاتٍ عمرانيّةٍ ضخمةٍ تُصرَف عليها الأموال، وتثير الدهشة ظاهريًّا إلّا أنّها لا تأتي بالديموقراطيّة، ولا بمفاهيم احترام الآخر، ولا تخفّف من فظاعة الكلمات والجزمات وكعاب الرشّاشات والحرائق والتهويد... كلّما خرج فلسطينيٌّ للتظاهر ضدّ الجدار العنصريّ أو كلّما خرج، في العالم العربيّ، إنسانٌ حرٌّ يواجه الكمّ التعبيريّ أو يطمح إلى إبداء الرأي أو القفز على الحالة السأم واليأس.

رسالة شكيب خوري

إنّه شكيب الذي يرى فيُحِسّ، ويسمع فيحفظ، يكتب فيحلّق، يتذكّر فيُعيد إليكَ الكثير ممّا يفوتك... فبين "تلة الزعرور" و"الحفرة"، يثبت عند شكيب خوري أمران، في ظنّه افتقدهما العالم العربيّ، وهما:

أوّلًا: الوعي الفرديّ، وبالتالي، الجماعيّ، وذلك عن طريق المعرفة والتنوّر والتعقّل من أجل إرساء مفاهيم العيش الكريم الذي يعتمد أسلوب العدالة والتفاهم.

ثانيًا: سبيل الخلاص الوحيد، هو الحلّ الداخليّ الذي يأخذ بمبدأ الغفران لا بمبدأ محاسبة الآخر، ويعتمد التسامح بدل الانتقام والثأر.

يدفع شكيب خوري الإنسان العربيّ بصورةٍ عامّة، واللبنانيّ بصورةٍ خاصّة، إلى التسلّح بالوعي، إلى النهل من جلجلة الحياة لنشر الأمل في حياةٍ أفضل، تستمدّ مادّتها من هذه القدرة على فهم الآخر، على معرفته، على قبوله، على مساعدته، على إفراز الذهنيّة الجديدة المتمكّنة من احتضان التفهّم والتفاهم في سبيل أنسنة إنسان الألفيّة الثالثة.

لقد حان الوقت للإنسان العربيّ أن يخرج من "حفرته"، وينفض عنه غبار التخدير، ويطرد الكسل القابع في لا وعيه، ليبدأ باستخدام الحقائق المبذولة لأجله، والتي تقرّبه من العمق الإنسانيّ الإلهيّ الذي وهبته إيّاه الطبيعة.

ينقم شكيب خوري على من حوّل الدين إلى أداةٍ لاستعباد الناس، وإلى تحليل الاستبداد بالمنطق القائل "القوّة حقّ"، وإلى من ألبس الثروة الماديّة ثوب الألوهة والعبادة، وعجن الإنسانيّة في طحين البلاء والولاء... وعلى المجتمع العربيّ، الذي ما زال يستخدم عبارة "سيّدي الرئيس"، مكرّسًا منظومة العبد لسيّده، ويتحدّى القوقعة التي، مهما بلغت حصونها المنيعة من قوّة، لن تستطيع صدّ الأنا عن الآخر لأنّهما مشروع حياة.

شكيب خوري قلمٌ وفكرٌ وفنٌّ في خدمة تغيير الذهنيّات وتحويل المصير.

والمرتجى قبول الغيريّة على أنّها صاحبة حقٍّ في الاختلاف، وصاحبة حقٍّ في المساواة... وهكذا يرسم شكيب معالم الطريق لحياةٍ خاليةٍ من الحصون، يُستعاض عنها بالجسور ليتمّ العبور إلى الآخر على إيقاع المحبة والكرامة الإنسانيّة.

في رسالة شكيب خوري إلى الأجيال الناشئة دعوةٌ إلى الحوار البنّاء القائم على الوعي والمسؤوليّة، دعوةٌ إلى استبعاد القسوة لأنّها دربٌ إلى الندم، دعوةٌ إلى التفهّم أنّ المعتقد ملعب المحبّة شرط أن تتّسعَ ساحته للاعبين متنوّعي المهارات، دعوةٌ لأن نرافق بنورنا الجميع من دون تمييز، فلا نُهمِل الذين لا يبصرون؛

دعوةٌ إلى محاكمة النفس ومساءلة الذات قبل محاكمة الآخرين؛ دعوةٌ إلى تطهير النفس بالفداء، وإن كنّا اليوم نعيش، منذ سنتين، ما يسمّى بالثورات العربيّة وبالربيع العربيّ، فلا زلنا نبحث، حتّى الساعة، عن الفكر الذي يَدعم هذا الربيع... وما وجدناه لا في ميادين التحرير ولا في ساحات الحرب المدمّرة.

وفي نهاية البحث يحضرني هذا الفكر العربيّ الليبراليّ المسيحيّ المثقّف، الذي خرق الأشواك والأسلاك، وعليه بُنِيت "المسألة الشرقيّة"، وهي مسألةٌ تتّخذ لها اليوم عنوانًا جديدًا "الشرق الأوسط الكبير"... فشكيب خوري واحدٌ من سلالة هذه النخبة، التي وضعت أسس "الربيع العربيّ" منذ عام 1860، وأنهكته حينها الأصوليّة الدينيّة... والمشهد اليوم يتكرّر... أن تقتلَ الربيع في مهده، خدمةً للمفاهيم اليابسة والمكلّسة، المنادية بآحاديّة الدين لإصلاح العلاقات بين البشر... وشكيب خوري يردّ "فلنُقِم المجتمع الجديد على فعل إيمانٍ بالآخر".

أيّها الفنّان، رسول المحبة والأنسنة، هنيئًا لك بهذا اليوم السعيد.

لائحة المصادر

- **خوري** شكيب، *تلة الزعرور*، (رواية)، بيروت، دار النهار للنشر، 1992.
- **خوري** شكيب، *الإنطاكي*، (رواية)، بيروت، بيسان، 2007.
- **خوري** شكيب، *الحفرة وقصص أخرى*، بيروت، بيسان، 2007.
- **خوري** شكيب، *الكتابة وآليّة التحليل: مسرح، سينما، تلفزيون*، بيروت، بيسان، 2008.